محمـــــد إقبـــــال
شاعر الشرق والاسلام

١٣٨٩ — ١٨٧٣ ١٤٥٧ — ١٩٣٨

للأستاذ مســـــعود الندوى

(تابع)

٦ — « مسافر » : مجموعة شعره الذى قاله أثناء سفره إلى أفغانستان سنة ١٩٣٢ على دعوة[1] من مليكها الشهيد الغازى نادر خان . وفيه نصائح لشبان بلاد الأفغان ورجالهم . ومما يسرنا ذكره بهذه المناسبة أن شباب الأفغان يدرسون شعره ويستفيدون من حكمه مثل شباب الهند . وقد بين لنا ذلك أستاذنا الجليل ، العلامة المحقق السيد سليمان الندوى — أمتعنا الله بطول بقائه — الذى كان زميل شاعرنا فى هذا السفر . وذكر لنا الأستاذ — أدامه الله — شيئاً كثيراً من مزايا محمد إقبال مما لا يتسع المقام لذكره . ومما ذكره الأستاذ بوجه خاص أنه حينما زار محمد إقبال جلالة الملك نادر أول مرة فى كابل جعلا يبكيان ساعة من الزمن ، والقوم صامتون ينظرون إلى مسلمين مخلصين ، أحدهما حكيم والآخر ملك ، يتكلمان بدموع العين ، لقد صدق من قال :

لسانى عيى فى الهوى وهو ناطق ودمعى فصيح فى الهوى وهو أعجم

٧ — بال جبريل (طير الناجبريل) : كان الشاعر بادىء ذى بدء يقرض فى الأردية ، ولذلك ترى جميع عيون شعره من الأدوار الأولى فى هذه اللغة . ولما سمت فكرته ونضجت آراؤه اتخذ من الفارسية آلة لإبداء أفكاره وجعلها وسيلة لإذاعة شعره فى جزء غير يسير من أنحاء العالم الإسلامى ، ولذلك جاءت جميع دواوينه بعد « بانك درا » فى اللغة الفارسية . وقد شدا بذكرها فى بيت له من « بيام مشرق » ولله دره حيث قال :

تم كلى زخيا بانك جنت كشمير
دل از حريم حجاز ونواز شهر از است

إن جسمى ريحانة من رياض الجنة الأرضية كشمير[1] ، والقلب منبته بلاد الله الحرام وأفانين الكلام مقتبسة من ألحان شهراز .

لكن اللغة الفارسية ، حينما وسعت نطاق المعجبين بشعره فى خارج الهند ، قللت من قرائه والمستفيضين من ينبوع حكمته فى داخل البلاد ، وطالت شكوى أهلها من شاعرهم ، حتى إن بعض حماة الأردية أرادوا أن يغضوا من شعره الفارسى ، وتقول غيرهم أن الشاعر اختار الفارسية ليكون فى مأمن من قوانين الحكومة الصارمة . لأجل هذا وذاك أراد الشاعر أن يعود « والعود أحمد » إلى الأردية ، فنشر سنة ١٩٣٢ هذا الديوان الذى بذ جمع دواوين شعره فى الحكمة وتعمق الأفكار ومعظم كلمانه فيه نتيجة ما شاهده وتأثر به خلال أسفاره إلى بلاد أوربا ... لندن وباريس وروما والأندلس ... وبلاد العرب عام ١٩٣١ ، ولقد أجمع النقاد على أن صاحبنا كان شاعراً أو فلسفياً فى مجاميع شعره السابقة ، لكنه حكيم فى هذا الديوان ، لا غيره . ومن خصائص هذه المجموعة أن صاحبنا تناول المشائخ (المعروفين بـ « ملا » فى الهند) والمتصوفين بالنقد اللاذع فى غير واحدة من كلماته . شىء لم نره فى مصنفاته السابقة . ومن ميزاته أنها تشتمل على معجزات القصائد التى ألهمها صاحبنا فى الأندلس وفلسطين حينما تكشفت لعينيه الحجب الظاهرية ورأى بعينه ما لا يتيسر لغيره أن يراه . لكن هذا الديوان ، على ما فيه من بدائع الحكمة ومشاهدات الأندلس وفلسطين ، ينقصه شىء عظيم ، وهو أن معظم المولعين بشعره لا يقدرون على إدراك مغزى كلامه ، لكونه مصبوباً فى قالب من الشعر المتأنق والحكمة العميقة البالغة ، وإنما يتذوقه المتأدبون والذين لهم ذوق فى الشعر متأصل .

٨ — ونظراً إلى ذلك عنى بنشر ديوان آخر سماه « ضرب كليم » (ضربة موسى كليم الله) أودعه آراءه فى جميع شعب الحياة العصرية ، مجردة عن الفلسفة وزخارف الشعر ، بحيث يفهمه

---

(١) كان دعا جلالة ملك أفغانستان ، الأساتذة الأجلاء : السيد سليمان الندوى ، والدكتور محمد إقبال والسر راس مسعود « حفيد السر سيد أحمد خان » ليستشيرهم فى تأسيس بنيان الجامعة الأفغانية بكابل ، لكن المنية عاجلته رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فراديس جنانه .

(١) أصل الشاعر الحكيم كشمير من عائلة برهمية . ثم نزح آباؤه الى بلدة سيالكوت فى بنجاب وفيها نشأ وترعرع وتعلم الى أن انتقل الى مدينة لاهور فى آخر عهده بالطلب ثم استوطنها وبها توفى .

كل من له أدنى إلمام بالأدب ، إن كان له حظ فى المسائل الدينية والسياسية المعروضة على بساط البحث والنقد .

وقد فسر الشاعر الحكيم بنفسه اسم هذا الديوان (ضرب كليم) بأنه « إعلان حرب على العصر الحاضر » وقد صدق رحمه الله ، فى هذا التفسير ، لأنه فنّد فيه آراء أهل الغرب والمتفرنجين وقطعها إرباً إرباً ، وانتقد جميع نظرياتهم السياسية ؛ فلا ريب أن (ضرب كليم) « إعلان حرب على العصر الحاضر » وقد أجمع المتأدبون بأدبه والمتذوقون لشعره وحكمه على أن شاعر الإسلام لم يجمع هذه الأفكار الثمينة فى كتاب واحد . ومن خصائص هذا الديوان أن حكيم الإسلام تعرض فيه لانتقاد القاديانيين وغلامهم[1] الكذاب ، فذكرهم غير مرة وكشف الغطاء عن دجلهم وكيدهم للإسلام والمسلمين . وذلك بأسلوبه المعجز الدهش .

(٩) ارمغان حجاز (هدية الحجاز) : عنوان ديوانه الذى ظهر بعد وفاته ، رحمه الله ، (باللغتين الفارسية والاردية) ، وقد سماه هدية الحجاز ، لسبب خاص . وبيان ذلك أنه سافر إلى بلاد أوربا مراراً وزار بعض بلاد العرب أيضاً ، لكنه ما قُدّر له أن يتشرف بزيارة الحرمين الشريفين ، على ما به من تبارح الوجد والشوق إلى زيارة بيت الله الحرام وقبر النبى صلى الله عليه وسلم . وكان من أمنيته أن يتمتع بهما ، وقد وطد العزم على ذلك ، وجعل يقرض أبياتاً ومقطوعات شعرية ، مواجهاً بها بيت الله الحرام ومثوى النبى (صلى الله عليه وسلم) ، فكأنى به كان يعد عدته لذلك السفر الميمون ويهيىء الزاد الذى يقدمه إلى عشاق أدبه والمفتتنين بحكمه ، حين قفوله من الزيارة المباركة ، إلا أن مرضه الأخير قد أنهك قواه ، وهو يتقلب على أحر من الجمر زهاء عامين يتجرع غصص النوى حتى وافاه الأجل المحتوم ، ولما يقض لبانته . وفى أيام المرض العصيبة قد جادت قريحته بأبيات ومقطوعات لا تنسى أبد الدهر . وإن ننس لا ننس البيتين اللذين رثى فيهما نفسه ، وأنبأ المولعين بأدبه وشعره بدنو أجله :

سرود رفتـــه باز آید کدنه آید
نسمی از حجاز حجاز آید کدنه آید
سر آن روزگار این فقری ذکر وآنات راز آید کدنه آید

ليت شعرى ، هل للنغمة المفقودة من رجعة ؟ ولا أدرى ، هل أجد بعد اليوم نسيم الريح التى تهب من جانب البطحاء ؟

أما هذا الفقير إلى الله فقد آن أوانه ودنا أجله ، فلا يعلم إلا الله ، هل ينبغ فى هذه الأمة حكيم آخر عالم بأسرار الكون ودقائق الأمور ؟

وكذلك قوله على فراش المرض قبل وفاته بأيام :

بیشتی بیر أرباب بیم آست بیشتی بیر پاکان حرم آست
بکوبا مسلم هنـــدی کدخوش باش
بیشتی فی ســـبیل الله بیم آست

هناك فى الدار الآخرة جنة للذين يجودون بأموالهم ويضحون بذات يدهم ، وجنة للزهاد والنساك المتقطعين إلى ذكر الله .

وقل المسلم الهندى أن لا يحزن ولا يتألم ، فإن هناك جنة أخرى غيرها ، ألا ، وهى التى ينعم بها على الذين يجاهدون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون .

— ٥ —

آراؤه وأفكاره :

نريد الآن أن نترجم بعض آرائه فى مختلف المسائل من ديوانه (ضرب كليم) ، ليعرف القراء وجهة نظره فى السياسة والدين والأخلاق ، إلا أنه لا يمكن أن يبقى فى الترجمة عشر معشار الروعة والتأثير اللذين امتاز بهما شعره .

الاجتهاد :

أنّى لأحد أن يتعلم أسرار الدين فى الهند
لأن العمل والأفكار العميقة مفقودة فيها ؛
فلا تجد فى المشتغلين بالعلم والتعليم حرية الفكر والتفكير السديد .
فتبًّا ، ثم تبًّا للعبودية وعدم التحقيق ؛
لا يغيرون أنفسهم فحسبُ ، بل يريدون أن يبدلوا كلام الله ويحرفوا الكلم عن مواضعه ؛

(١) اسم هذا المتنبىء الذى ظهر فساد دعواه فى الخانقين ، غلام أحمد والقادياني نسبة إلى قرية « قاديان » التى ولد فيها وتوفى بها

ما أبعد عن الحق هؤلاء الشيوخ والفقهاء وما أضل سبيلهم !

يرى هؤلاء « العبيد » أن كتاب الله ناقص

لأنه لا يرشدهم إلى طريق العبودية .

المسلم الهندى :

يقول الهنـــادك[1] إنه خائن لوطنـه

ويرى الانكليز أن المسلم متسول ومتكفف

وشريعة أصحـــاب[2] النبوة ، تفتى

بأن هذا المسلم « العتيق البالى » كافر

فلا أدرى متى يرتفع صوت الحق ومن أى جهة ؟ وقلبى حائر قلق أمام هذه الأقوال المتضاربة .

الجهاد :

لقد أفتى الشيخ بأن هـذا عصر القلم ، وأما السيف فلم يبق له اليوم عمل يذكر ؛

ولكنى أسائل حضرة الشيخ : أولا يعرف هو أن هذه الموعظة لا تجدى اليوم بشىء فى المساجد ، فأين السيوف والمدافع بأيدى المسلمين ؟

وإن كانت فالقلوب قد ذهلت عما فى الموت من لذة ؛

ومن لى بالذين تجف قلوبهم خشية الموت ؛

حتى لا يرضوا أن يضحوا بنفوسهم تضحية الكفار ؛

من لى بهم أن ينفضوا عنهم غبار الجبن والخمول ؛

ويبذلوا مهجهم وأرواحهم بذل المسلمين المخلصين ؟

وما أحرى الذين يرتعد العالم خوفاً من آلاتهم الجهنمية ،

أن يلقنوا الأمن والسلام ويدعوا إلى ترك « الجهاد » ، « جهادهم » الباطل .

أو لا ترى أن أوربا قد غرقت فى بحار من حديد

للمحافظة على الباطل وجنـوده ، واستعداداً للحرب[3] الضروس القادمة .

(١) أريد بالهنادك مشركى الهند من غير المسلمين أما « الهندوس » فالظاهر أنه خطأ شائع ، لأن « الهندوس » (Hindus) جمع « هندو » فى الانكليزية بالسين (S) ولعله قد جرى على أقلام كتاب العرب لتقلهم من اللغات الافرنجية .

(٢) يريد القاديانيين.

(٣) قيلت هذه الكلمة قبل الحرب الأخيرة بأعوام .

ونحن نود أن نسأل الشيخ المتزلف إلى الكنيسة الغربية والاستعمار الغربى : أليست الحرب شراً فى الغرب ، إذا كانت كذلك فى الشرق ؟

وإن كنت تريد الحق ، فهل يليق بك أن تحاسب الإسلام وتضرب صفحاً عن أعمال أوربا وفظائع مقترفاتها ؟

الاسلام الهندى :

حياة الأمة منوطة بوحدة الأفكار ،

وما الوحى[1] الذى يمزق هذه الوحدة إلا ضلال وخرافة ،

ولا ضمان لهذه الوحدة إلا القوة ؛

أما العقل والحكمة فلا يحركان فى هذا الشأن ساكناً ، لأن المسألة مسألة القوة ؛

ولكنك أيها المسلم ، لست فى شىء من تلك القوة ، فاجمل بك أن تلتجىء إلى كهف أو مغارة ، وخير لك أن تجتهد فى إيجاد إسـلام[2] آخر ، يدعو إلى الفقر ، والعبودية ، واليأس الدائم . وبما أن اللا ، (الشيخ) قد أبيح له فى الهند أن يركع ويسجد .

يزعم الأبله أن الإسلام حر فى هذه الديار (كأنى به لا يعرف من الدين إلا الركوع والسجود فقط) .

محمد على الباب :

كانت خطبة (الباب) بين يدى العلماء غريبة ؛

كان المسكين يحرف أعراب (السماوات) عن موضعه ؛

وكان العلماء يبتسمون ، ساكتين على خطأه ؛

فأجابهم إنكم لا تعرفون درجاتى العالية ؛

كانت آى القرآن محبوسة فى قفص (الاعراب) ؛

والآن حل إسارها لوسيلة (إمامتى).

(البقية فى العدد القادم) مسعود الندوى

(١) إشارة إلى القادياني .

(٢) يريد ديناً آخر غير دين الاسلام الحق الذى دعت إليه الرسل الكرام عليهم السلام من لدن سيد البشر آدم عليه السلام ، إلى خاتمهم وسيدهم ومولانا وسيدنا النبى العربى الأمى صلى الله عليه وسلم .